النسيج الزمني في رواية رجال في الشمس لغسّان كنفاني

أ/ ملاّس مختار
قسم اللغة والأدب العربي
جامعة جيجل

1- مقاربة في ماهية الزمن:

لقد ظلّ الفكر البشري منذ القديم يؤصّل للزّمن (Le temps) في محاولة منه لإدراك ماهيته واستكناه حقيقته، غير أنّه ظلّ عاجزا عن وضع مفهوم محدّد له على اعتبار أنّه عنصر تجريدي مقرون بعوالم الميتافيزيقا (Métaphysiques)، فقضايا مثل القدم والحدوث، ومآل الوجود، والصيرورة والأزليّة، وغيرها من القضايا الفلسفيّة هي في حقيقة أمرها، تحاول أن تخوض في الظاهرة الزّمنيّة بوصفها ظاهرة من أكبر الظواهر الوجودية. فهذا أبو البقاء يعرّفه لنا بأنّه: "امتداد موهوم غير قارّ الذّات، متّصل الأجزاء، فيكون كلّ آنٍ مفروضا في الامتداد الزماني نهاية وبداية لكلّ من الطرفين قائمة بهما، وهو من أقسام الأعراض، وليس المشخّص فإنّه غير قارّ، والحال منه قارّ. وهو ليس معيّنا تحصل فيه الموجودات، بل كلّ شيء وجد وبقي أو عُدم وامتدّ عدمه أو تحرّك وبقي جزئيات حركاته أو سكن وامتدّ سكونه، وحصل واحد من الامتداد هو الزّمان"(1).

إنّ الزّمان مقولة من مقولات الفكر عند بعض الفلاسفة وهو مقولة من مقولات الوجود عند البعض الآخر، وهو من الناحية اللغوية يدلّ على قليل الوقت أو كثيرة(2)، أمّا من الناحية الفلسفية فهو امتداد غير مرئي، يحسّ به الإنسان دون أن يمرّ عبر حواسه، يحاربه أو يهرب منه، يرهبه دون أن يعرفه، إنه فعل مشوب بالغموض.

وقد حدّد الدارسون مجموعة من الخصائص المميّزة للزمن عن غيره من مقولات الوجود الأخرى، فهو يتميّز باستقلاليته عن الوجود المادي، ولا نهائيته، وترابط حلقاته واتصالها. فضلا على أنّ "الزمن في طبيعته الذاتية فارغ Empty ويملأ فقط بطريقة ثانوية أو إضافية بالتغيّرات Changes. وبطبيعة الحال فإنّ هذا التمييز بين الزمن والصيرورة المشخّصة (Concrete becoming) من أساسيات الفيزياء الكلاسيكية"(3).

وعلى غرار ذلك تعد الظاهرة الزمنية من أكبر الظواهر الكونية التي تمارس فعاليتها التأثيرية على الوجود كله، إذ تمكّن الأشياء من تحقيق وجودها وكينونتها ضمن الصيرورة الكليّة الّتي تتحكم في

الحركة العامة للكون. ونظرا لهذه الحركية(4) الّتي يخضع لها الفعل الزمني، فإنّ أفلاطون (Ploto) قد اعتبره " دود الكيان ينخر معدن الأشياء فيحيلها إلى الفساد والفناء، ويعبث بالعالم المنظور فيجعله خدعة وأوهاما وخيالات، وما التخلص منه إلا بالتخلص من الحسّ والارتقاء بالعقل إلى العالم المعقول- عالم القرار- عالم المثل- عالم لا زمان فيه ولا تحول ولا فساد ولا خدعة. وما الجدلية الأفلاطونية إلا محاولة لكشف هذه الخدعة والتغلّب عليها لإدراك الجوهر الأصل، الحقيقة المماثلة المطهّرة من داء الزّمان"(5). لقد جعل (أفلاطون) من الزمان شكلا من أشكال الواقع الإنسان الّذي يتميّز بالنقص والفساد والدونية، ومن ثمّ فإنّه لم يجعل أشياء العالم المثالي خاضعة له. وهكذا يكون الزمان في النظرية الأفلاطونية فعل حركة وتحول، يشوه الأشياء ويعبث بها، يخرمها، يغير من ملامحها، يفقدها هويتها وإيدوسيتها، إنه فعل تدميري يجعلنا نرى الأشياء تتهاوى من مكانها لتسقط في هوة الظلمة والنسيان." إنّ هذا العنصر الهام (الزمن) المجرد غير الملموس ماديا ولا وجود له حركيا، قادر على العبث في الصيرورة وكذلك تأكيدها"(6). ولهذه الاعتبارات كلّها فإنّنا وجدنا (المسعودي) يطالب بحذفه من الحياة لأنّه أوجد الحركة، والذي تورثه الحركة هو النفاذ، لأنّ كل متحرك فاسد. إنّ الزمان لكالرحى الدائمة الرحي، لابد من كسرها حتّى تأمّن الحيّة ويطمئنّ الكيان"(7).

إنّ هذا الطابع الحركي للحدث الزمني، رغم ما أثاره عند الفلاسفة والمنظّرين من إشكالات جعلتهم يقرّون بالجانب السلبي لهذه العملية في حياة الإنسان وأشيائه، فإنّ ذلك لم يمنع البعض الآخر من التأكيد على المظهر الحيوي لحركية الزمن ، ومن بين هؤلاء نجد الفيلسوف الفرنسي برغسون(Bergson) الّذي يرى أنّ في فعل الحركة والتحول فعلا إيجابيا، ذلك أن الأشياء "لا توجد على أنها انتهت وكملت، بل هي في طور تحول مستمرّ"(8). وهذا ما من شأنه أن يساعد الفكر على التغيّر، ذلك أنّ علاقة الفكر بالوجود هي علاقة جدلية فإذا ما تغيّر الوجود انطبع هذا التغيّر على الفكر، والعكس صحيح، ومن ثمّ فإذا كان الوجود ساكنا فإنّ الفكر يجمد هو كذلك، لذلك يؤكّد برغسون أن "لا فكر إلاّ ما اتّصل بالأشياء كعناصر متحولة، ففي هذا التحوّل تخترع الأشياء نفسها باستمرار"(9).

وقد يحيلنا قول (برغسون) الأخير إلى مساحة أخرى هي الأكثر خصبا وتنوعا بالنسبة للظاهرة الزمنيّة، وتتمثل في علاقة الفكر بالزمان على اعتبار أنّ العملية التفكيرية هي التي من شأنها أن تؤسّس لكينونة الأشياء، ومن ثمّ فإنّ هذه الأخيرة –الأشياء- لا

يمكن أن تحقّق وجودها إلاّ عبر العملية التفكيرية، وهذا ما أشار إليه رينيه يكارت(réné Décartes) حينما أكّد "أنّ عملية التفكير تعتمد مبدأين: أولهما أنّ الفكر لا يتم إلاّ ضمن حدود أولى هي المطلق والأبد، وثانيهما أن يكون موضوع التفكير شيئا مخلوقا ابتدأ في لحظة ما، وله نهاية في لحظة ما. وبذلك يبرز الزمن التاريخي أي زمن الأشياء، إلاّ أنّه لا يظهر إلاّ كلّما تمثّله عملية التفكير، أي أنّه لا استمرار له، لأنّ لحظة التفكير لا تدوم إلاّ على قدر ما يدوم التفكير"(10).

وإذا كان للزمان علاقة وطيدة بالفكر، فإنّ علاقته بالمكان لا تقلّ شأنا عن ذلك، على اعتبار أنّهما مرتبطان ببعضهما ارتباطا وثيقا، "فالزمن مندمج في الحدث، بمعنى أنّه يتجدّد بوقائع حياة الإنسان وظواهر الطبيعة وحوادثها وليس العكس، إنّه نسبيّا يتداخل مع الحدث مثله مثل المكان الّذي يتداخل مع المتمكّن فيه"(11).

وما يؤكّد لنا هذه العلاقة هو أنّ الزّمان يدلّ على توالي إحساساتنا وإدراكاتنا في موقع واحد من المكان. بمعنى أنّ كلا المقولتين ترتكز في تصوّرها ارتكازا أساسيا على الأخرى، والتّصوّر الجامع بن الزّمان والمكان هو الحركة، أي أنّ تغيّر الزّمان يؤدّي إلى تغيّر المكان. ومن هنا كانت الحركة– في رأي بيرسن- "هي الطريقة الأساسية الّتي تتمثّل بها الظواهر ذهنيّا"(12).

وقد اختلف الفلاسفة والمفكّرون في نظرتهم إلى المقولتين؛ إذ يرى أصحاب المدرسة المثالية أنّ الزّمان والمكان "ليسا مادة ولا حدثا ولا علاقة، أنّما هما من ضرورات العقل والحواس حتّى تكون التجربة البشرية ممكنة"(13). ومن ثمّ أكّدت المثالية أنّ لا وجود للزّمان والمكان إلاّ في الفكر الإنساني. وهذا ما خالفتها فيه المدرسة الواقعية الّتي اعتبرت أنّ الزّمان والمكان "أبعاد مادية موجودة في ذاتها، واكتنافهما للأشياء لا يعني أنّهما جزء من تلك الأشياء"(14).

ويشير في هذا المجال (ماهر عبد القادر) إلى بعض الفروق الّتي تقوم بين الزمان والمكان، إذ اعتبر هذا الدارس أنّه إذا كان المكان يدرك على أنّه ذو ثلاثة أبعاد متجانسة، فإنّ الزمان له بعد واحد مطّرد، ذلك أنّ "علاقة التجاور هي العلاقة الأساسية للمكان، وتنشأ عن وضع شيء بجانب آخر، لأنّ نقاط المكان تقع الواحدة منها بجانب الأخرى. أمّا العلاقة الأساسية للزمن فهي علاقة التتابع Succession لأنّ أنات Instances الزمن تتبع الواحدة منها الأخرى. إنّه إذا أمكننا الاحتفاظ بهذا التمييز في عقولنا بصورة

واضحة أمكننا تطبيق الكثير من الخصائص الّتي نطلقها على المكان، وعلى الزّمان أيضا"(15).

2- الزمان والرواية:

يشكّل الزمان في الرواية مركز الاستقطاب بما له من فاعلية جمالية وفنية من شأنها أن تبلور شعرية النص الأدبي الذي تأسس عبر ما يسمى في النقد المعاصر بـالانزياح (Deviation)، وهو في ذلك "يلعب دورا يشبه كثيرا ذلك الذي يلعبه اللون في اللوحة الزيتية فهو يعطي للحدث صيغة خاصة تشير للحين الذي وقع فيه، وتضفي على الجو العام له ظلالا، توحي بأبعاد دلالية، تسمح بها حدود التأويل"(16).

وتعود هذه الفاعلية الإبداعية التي يكرسها الزمن داخل النص الروائي إلى طبيعة الأدب ذاته الذي ليس هو مجرد نقل للواقع بل محاولة لتغييره، والرواية باعتبارها جزء من الأدب هي "إعادة تركيب للوجود تريد أن لا تنفعل بالزمن إلا على قدر ما تفعل فيه وترغمه على ما تشاء من الأنساق الإيجابية"(17). وهكذا فإنّه، إذا كانت وقائع الحياة البشرية خاضعة لمختلف الحتميات الزمنية، فإن الرواية- وكغيرها من الفنون الأدبية-رغم تمظهر الطابع الزمني فيها إلا أنّ ذلك لا يفرض عليها صرامة زمنية محددة، فالراوي باستطاعته أن يتصرّف في الأحداث كما أراد سواء بتمديدها أو ضغطها أو تكثيفها وهذا لاعتبارات فنيّة أو تنفيسية أو تعليمية. إنّ الرواية "ليست مجرّد مسجّل للواقع، بل هي ككلّ الأعمال الفنية مغالبة للزمن، نستشفّ من خلالها ما نبتغيه من فضل وجمال لعالم الغد كما نريده أن يكون"(18).

وإلى جانب ذلك، يختلف زمن الخطاب عن زمن القصة (الخيالي أو الواقعي) على اعتبار أن زمن الخطاب هو خطيّ (linéaire)، أي ذو بعد واحد، في حين أنّ زمن القصّة متعدد الأبعاد (عدّة أحداث تجري في الوقت نفسه)، وعليه فإنّ "مادة حكائية لا تستطيع أن تحقّق كينونتها إلاّ عبر جريانها داخل الزّمن في شكل سلسلة متوالية من الآنات المتارعة أو المتباطئة أو المتراوحة بين التسارع والتباطؤ، وكأنّ الخطاب بهذا الترتيب الواعي للمادة الحكائية، يسقط شكلا هندسيّا معقّدا على خطّ مستقيم"(19).

إنّ الزمن، داخل الرواية، يعيش نوعا من الحرية، حيث لا تقيّده شروط الحتمية الواقعية، فهو يتحرّك شمالا وجنوبا، يظهر تارة ويختفي أخرى، "وفي ضوء هذا العنصر الهام (الزمن) بسحريته وقدرته على التشكّل مع الظهور الجلي والاختفاء تتشكّل القصّة،

وربّما تتعدّد تقنيات الفنّ القصصي من جذوره"(20)، لتصبح العملية السردية رحلة اقتناص للحظات المشوّقة أو المرعبة زمنيا حتّى تكتسب بها مظهرا حيويّا وفنيّا من شأنه أن يفتح أمام النصّ مجال التعدّدية الدلالية ممّا يمكّنه من تكرّيس إمبراطوريته الجمالية.

بيد أنّه إذا كان الروائيون الأوائل لم يولوا الزمن الاهتمام اللائق به بوصفه عنصرا من أهمّ العناصر الّتي تدخل في تشكيل البنية الروائية، فإنّه، ومع الرواية المعاصرة الّتي حمل لوائها كلّ من غسّان كنفاني ومحمّد برادة واحمد المديني وواسيني الأعرج وأحلام مستغانمي وغيرهم كثيرون، بدأت تتجلّى مظاهر الزّمن الأدبي بروعته، إذ أصبحت تتعامل معه "تعاملا غير خاضع لنظام التسلسل أو المنطق التاريخي؛ أي منطق الزّمان التّقليدي (Logique de la chronologie) نفسـه"(21).

1- الماضي أو الزّمن الحلم:

لقد هيمن الزمن الماضي بأشكاله وصيغه المختلفة على رواية غسّان كنفاني، على اعتبار أنّها قامت على ما يسمّى بـ:العملية الاستذكارية أو الاسترجاعية، حيث أن كلّ شخصيات الرواية عادت بنا إلى ماضيها في محاولة منها لاستعادة بعض الذكريات .فهاهو أبو قيس ما إن استلقى شّط العرب حتّى استسلم إلى ناقوس الذكرى، معاتبا نفسه على ما مرّ من الزّمن دون أن يحرّك ساكنا ،رغم ما عايشه من فقر مدقع :"في السنوات العشر الماضية لم تفعل شيئا سوى أن تنتظر (...)، ماذا تراك كنت تنتظر؟أن تثقب الثروة سقف بيتك.. بيتك؟ إنّه ليس بيتك.. رجل كريم قال لك:اسكن هنا! هذا كلّ شيء، وبعد عام قال لك :عطني نصف الغرفة ،فرفعت أكياسا مرقّعة من الخيش بينك وبين الجيران الجدد ..وبقيت مقعيّا حتى جاءك سعد، وأخذ يهزّك مثلما يهز الحليب ليصير زبدا"(22). والأمر نفسه نجده بالنسبة للشخصيات الأخرى، الّتي ما إن يذكرها الراوي حتّى نلفاها وقد استسلمت كلّها للذكرى، وتركت نفسها تهوم في عوالم الماضي الفسيح.

بيد أنّ السّارد، داخل هذه الرواية، لم يأخذ العملية الاستذكارية على أنها – كما عبر بروست(poust)-"مجرّد نجدة تنزل على الكائن من السماء لتنتشله من العدم"(23). بل استغلّها كفاعلية إبداعية استطاع من خلالها أن يحقق عدة أغراض حيوية، كان لها الأثر البليغ في هيكلة الرواية، وتكريس بعدها الجمالي. ولنقف في ذلك عند قوله: "..وحين يلتقي النهران الكبيران: دجلة والفرات، يشكّلان نهرا واحدا اسمه شطّ العرب، يمتدّ من قبل البصرة بقليل..الأستاذ

سليم العجوز النحيل الأشيب، قال ذلك عشر مرّات بصوته الرفيع لطفل صغير كان يقف إلى جانب اللوح الأسود، وكان هو مارّا حينذاك حذاء المدرسة في قريته.. فارتقى حجرا، وأخذ يتلصص من الشبّاك: كان الأستاذ سليم واقفا أمام التلميذ الصغير، وكان يصيح بأعلى صوته، وهو يهزّ عصاه: "..وحين يلتقي النهران الكبيران: دجلة والفرات..". وكان الصغير يرتجف هلعا فيما سرت ضحكات بقية الأطفال في الصّف.. مدّ يده، ونقر طفلا على رأسه، فرفع الطّفل نظره إليه، وهو يتلصص من الشبّاك: "ماذا حدث؟" ضحك الطفل، وأجاب هامسا: "وتيس!" عاد، فنزل عن الحجر وأكمل طريقه وصوت الأستاذ سليم ما زال يلاحقه، وهو يكرّر: "وحين يلتقي النهران الكبيران.."(24)

فالقارئ العادي قد ينظر إلى هذا النّص على أنّه مجرد ذكرى عابرة في ذهن أبي قيس، بيد أنّنا لو أمعنا النظر في بنية هذا النّصّ وطبيعته التركيبية، لعرفنا أنّ السارد لم يعد بذاكرة هذه الشخصية إلى هذا الموقف بالذّات اعتباطا أو بمحض الصدفة، أو أنّها مجرّد نقل لذكرى فارغة من محتواها الدلالي أو الرمزي، بل لعلّ تركيزه على عبارة: (..وحين يلتقي النهران..)، ما يثبت أنّ العملية الاستذكارية، داخل هذا المقطع القصصي، ليست مجرد محاولة لاستجلاء بعض المواقف التاريخية، بقدر ما هي عملية فنية جمالية،لها مبرراتها التقنية وأغراضها الدلالية.

إنّ السارد ينقلنا، من خلال ذاكرة أبي قيس، إلى الزمن العربي منذ تشكيل الدولة الإسلامية إلى سقوط فلسطين في يد الغزاة الصهاينة، ذلك أنّنا إذا تتبعنا بنية هذا النّص، سنجد أنّه يتكون من عبارة مفصلية تمثلت في قوله: (..وحين يلتقي النهران..)، هذه العبارة الّتي تكرّرت، داخل هذا المقطع، ثلاث مرّات ممّا جعلها تأخذ شكلا استقطابيا حرّك الفاعلية القرائية للنّص.

غير أنّ السارد، في عرضه لهذه المتتالية المفصلية، لم يعتمد على تكرارها فقط، بل نوّع في استعمالاتها حيث ما انفكّ تدريجيا يقلّص من المادة اللّفظية، ولعلّ في هذه العملية التحجيمية أغراض دلالية ورمزية كان يهدف السارد إلى إثارتها، وذلك بتشكيل نمط متواز للحركة الزمنية للفعل العربي، بحيث يمثل المقطع الأوّل زمن الوحدة العربية(الأمّة الإسلامية)الّتي تقوم على وحدة الكلمة والصفّ حيث لا تفرّق ولا تشتّت، زمن القوّة والصلابة والفحولة: (..وحين يلتقي النهران الكبيران: دجلة والفرات، يشكّلان نهرا واحدا اسمه شطّ العرب، يمتدّ من قبل البصرة بقليل إلى..). أمّا المقطع

الثاني الّذي اكتفى فيه السّارد بقوله: (..وحين يلتقي النهران الكبيران: دجلة والفرات..) إنّما أراد أن يمثّل لنا، من خلاله، زمن الجامعة العربية ؛ الزّمن الّذي تشكله سياسة الوحدة، ويفرّقه الفعل العربي الموحّد. أمّا المقطع الثالث (..وحين يلتقي النهران الكبيران..) فهو عبارة عن علامة إشارية حاول من خلالها السارد أن يطرح السؤال حول إمكانية التلاحم العربي.

وعن طريق هذه القراءة التأويلية يمكن للقارئ أن يستقرئ كثيرا من المقاطع السردية الّتي أوردها غسّان في روايته، والّتي قد تظهر لنا، لأوّل وهلة، أنّها مجّرد ذكريات مفرغة من محتواها الدلالي والفنّي. لقد استطاع غسّان كنفاني أن يحرّر مادته القصصية من طابعها الحكائي، ويشبّعها بزخم هائل من المحمولات الدلالية، الّتي مكّنته -بجدارة- من تمرير رؤيته الفكرية للخريطة السوسيوثقافية للمجتمع العربي، الأمر الّذي جعل النصّ يثغثغ-كما قال بارث- ويتحصّن، فتكثّفت دلالته الّتي مكنته من تكريس وجوده الجمالي الفنّي ذلك أنّ النّصّ الأدبي هو الّذي "يهدم هدما كاملا، بيلغ حّد التناقض، فئته الاستدلالية الخاصة، ومرجعه اللساني الاجتماعي(جنسه): فيكون «المهرّج الذي لا يضحك»، والسخرية الذتي لا تنقاد، و البهجة من غير روح ولا صوفي(سادري). وإنّه ليكون قولا متمثّلا به من غير قوسين يحفّانه."(25).

2- الحاضر أو زمن الضياع:

إذا كان بعض النّحاة، ومنهم صاحب كتاب "الإيضاح في علل النحو"، قد أنكروا وجود زمن الحاضر على اعتبار أن كلّ لحظة مرّت منه تدخل في زمن الماضي، وأنّ كلّ لحظة لم تأت منه تدخل في زمن المستقبل(26)، فإنّ برغسون (Pregson) الفيلسوف الفرنسي قد أكّد وجود هذا الزمن ليس بوصفه <<زمنا جاهزا ومقرّرا قضى مبدأ السببيّة بوجوده على النحو الّذي هو عليه، وجعل منه حاضرا معطى أو حاضرا أثريا تاريخيا، بل الحاضر عنده هو ما لم يمض بعد، هو ما لم ينتقل بعد إلى ذاكرة التاريخ (...) وكلّ آن هو فرصة للاختيار، أي أنّه فرصة لفعل قرّرته إرادة الخلق، وبالفعل نصنع أنفسنا ونوجدها، ونصنع العالم ونوجده"(27). ويؤكّد فاليري(Valérie)، في هذا المجال، ما ذهب إليه برغسون، معتبرا أنّ "اللّحظة الحاضرة هي الحيّز الوحيد الّذي تقوم عليه إمكانية الاختيار وإمكانية الفعل"(28).

ولمّا كان الحاضر هو زمن الاختيار والفعل، فإنّ القدرة على اتخاذ القرار تكون مشوبة بالخوف والهلع، وهذا ما حدث بالفعل في رواية رجال في الشّمس الّتي سيطرت عليها ملامح الحزن والقلق

الخوف من المجهول، ويمكن أن نلمس مثل هذا النسيج الدرامي في المقطع الّذي يخبرنا فيه السارد عن عدم قدرة الشّخصيات الثلاث(أبو قيس- أسعد- مروان) في اتخاذ قرار السفر عبر الخزّان مع أبي الخيزران: "قال أسعد [موجّها كلامه إلى أبي الخيزران]: يبدو لي أنّك فلسطينيّ.. أأنت الّذي ستتولّى تهريبنا؟ – نعم، أنا، - كيف؟ – هذا شأني.. ضحك أسعد بسخرية،ثمّ قال ببطء، شادّا على كلماته بعنف: لا يا سيّدي.. إنّه شأننا نحن.. يجب أن تحكي لنا كلّ التفاصيل، لا نريد متاعب منذ البدء. قال أبو الخيزران بصوت حاسم: سأحكي لكم التفاصيل بعد أن نتفق، وليس قبل ذلك.. قال أسعد: - لا يمكن أن نتفق قبل أن نعرف التفاصيل، ما رأي الشباب؟ لم يجب أحد، فأكّد أسعد من جديد: - ما رأي العمّ أبو قيس؟ – الرأي رأيكم.. ما رأيك يا مروان؟ أنا معكم. قال أسعد بعنف: إذن دعونا نختصر الوقت.. يبدو لي أنّ العم أبو قيس غير خبير بالأمر، أمّا مروان فإنّها تجربته الأولى.. أنا عتيق في هذه الصنعة، ما رأيكم أن أتفاوض عنكم؟.."(29). وهكذا راح أسعد يتفاوض بمفرده مع أبي الخيزران، وطال الحديث بينهما قبل أن يصلا إلى اتخاذ القرار المناسب.

وما تجدر الإشارة إليه في هذا الصّدد- والنّص السابق يؤكّد ذلك- أنّ السارد قد أولى الحاضر اهتماما كبيرا، بحيث كان يركز على أقلّ الجزئيات فيه انطلاقا من أنّ الزمن الروائي "يشكّل لحظة مترامية الأطراف. هذه اللحظة الّتي يكون لها الأثر الكبير في تأسيس لبنية الخطاب القصصي ليس بوصفه تكنيكا فنّيّا وجماليّا، ولكن توليف رؤيوي يحاول أن يعيد ترتيب شاشات التفكير والتعامل مع الواقع"(30). ولعلّ أبرز ما يمثّل التفكير السردي للحظة الحاضرة هذا النّصّ الّذي ينقل لنا فيه السارد حالة أبي الخيزران حينما اكتشف موت زملائه في الخزّان: "..قاد أبو الخيزران سياراته الكبيرة حين هبط اللّيل إلى خارج المدينة النائمة .. كانت الأضواء الشاحبة ترتعش على طول الطريق، وكان يعرف أنّ هذه الأعمدة الّتي تنسحب أمام شبّاك سيارته سوف تنتهي بعد قليل حينما يغرق في البعد عن المدينة.. سوف يعمّ الظّلام.. فاللّيلة لا قمر فيها، وأطراف الصحراء ستكون كالموت.."(31). ويمضي السارد بهذا الشكل، في عرض أبسط الجزئيات الّتي تخصّ هذا الحدث الزمني إلى درجة أنّه يكاد زمن النّصّ أن يتطابق مع زمن الحكاية.

غير أنّ السارد لا يعتمد على تكثيف الحدث الزمني فحسب، بل ودلاليا أيضا، كما فعل ذلك مع الزمن الماضي، فنحن لو عدنا إلى المقطع السابق فإنّنا نجد أنّ السارد أراد أن يضفي على الحدث

المسحة السوداوية، فطعمه بجملة من العلامات الدلالية الّتي توحي بهذا المعنى (الأضواء الشاحبة- يعمّ الظّلام- اللّيلة لا قمر فيها- أطراف الصحراء ستكون صامتة كالموت). وهكذا يتعانق زمن الحكاية مع زمن الخطاب القصصي ليشكلا لنا بنية فنية رائقة تتميّز بثقلها الدلالي والجمالي.

إنّ المجال قد لا يسعنا ههنا للحديث عن كلّ الدلالات النفسية والاجتماعية والجمالية والرؤياوية للزمن الحاضر في رواية رجال في الشّمس، لكنّنا نشير إلى أنّه زمن التأزّم والقلق المضمّخ بأحاسيس الخوف والهلع من المستقبل المجهول الملفوف بالكثير من الأسئلة الغامضة الهاربة من قاموس الزمن الفلسطيني، أنّه معلم التشرّد والضياع، حيث يفقد الزمن وزنه الوجودي، لتتحول الحياة إلى مقامرة أو مغامرة تكون نتيجتها هي المزبلة(القبر) الّذي يعدّ معلما آخر للفناء العربي.

3- المستقبل أو سؤال الزمن:

يتمظهر المستقبل في الخطاب القصصي- عموما- كشكل لفظي من خلال التوقّعات أو التنبؤات أو الأحلام والأماني الّتي تختصّ بها بعض الشخصيات الروائية. بيد أنّنا حينما نتتبع رواية غسّان فإنّنا لا نكاد نلمح هذه الصيغ والأشكال اللّفظيّة إلا في القليل النادر، فهذا أبو قيس حينما أراد أن يقنع نفسه بوجوب اتخاذ قرار السّفر إلى الكويت، فإنّه راح يحلم بما سيحققه من خلال هذه الرحلة: "سيكون بوسعنا أن نعلم قبس.. (..)، وقد نشتري عرق زيتون أو اثنين..(..)، وربّما نبني غرفة في مكان ما (..)، إذا وصلت .. إذا وصلت"(32).

غير أنّنا لا نريد – في حديثنا هذا- أن نستجلي الدلالات المختلفة للمستقبل من خلال هذه الرؤية الضيّقة (رؤية الشّخصيات الروائية)، وإنّما من خلال رؤية السارد نفسه. فالمستقبل، بهذا المنظار، يتراءى لنا، عبر رواية رجال في الشّمس، زمنا سوداويا مكدّسا بدلالات العقم والحزن والألم حيث يكون مصير الأشياء هو التلاشي في دائرة الزمن المطلق؛ أنّه زمن المزبلة (القبر) الّتي تعتبر علامة سيميولوجية تدلّ إلى الموت والفناء، حين ينفقد الحلم، ويغيب النّور، ويسود الصّمت والسكينة اللّذان يبعثان على القلق والرعب والإحباط. وإذا كان ينظر إلى الماضي على أنّه "مقبرة يدفن فيها الزمن كلّ ما يحلّ به، فالمستقبل وحده المحمّل بالإمكانات، لذلك أحيط بهالة من الجمال لأنّه هو الّذي يعد بالحي والجديد"(33)، فإنّ رواية رجال في الشّمس قد قلبت هذه المعادلة بحيث أصبح المستقبل هو الغول الّذي يلتهم كلّ اللحظات السعيدة

والمشرقة، ولذلك فهو يتراءى للقارئ شاحبا قاتما، تنبهم فيه كلّ معاني الأمل والحياة.
وبهذا الشكل تظهر لنا النظرة التّشاؤمية لغسّان من الوضع الفلسطيني الّذي يرى أنّه ينحدر نحو الهاوية الّتي اختار لها علامة سيميولوجية دالة؛ وهي المزبلة. وقد استطاع النّاص أن يحمّل هذه العلامة كلّ أحلام وآمال الشعب الفلسطيني في الهروب من مواجهة العدوّ الصهيوني والتعلّق بالسراب الّذي يختفي خلف شط الخليج. لقد كانت الرحلة مجرّد مغامرة صوب المجهول، فبدل التحدّي والإصرار على البقاء في فلسطين، ومواجهة المغتصب، راحت شخصيات الرواية تبحث عن أمل مزيّف ما لبث أن تحوّل إلى كابوس، حيث رميت جثثهم في المزبلة، ولعلّها العلامة الّتي تمكّن الناص من خلالها أن يبعث برسالة إلى الشعب الفلسطيني يبنهه فيها من مغبّة ترك الأرض، والتعلّق بأحلام واهية خارج بلده فلسطين، لأنّه سيحلّ به ما حلّ بهذه الشخصيات، فيكون مآله المزبلة.
وخلاصة لحديثنا، نقول أن تعامل الناص مع الأزمنة الثلاث ماضيا وحاضرا ومستقبلا تعاملا فنيّا جماليا سواء على مستوى الدلالة اللفظية أو على مستوى الدلالة الزمنية، حيث استطاع كنفاني- عن طريق ذكائه وحدسه اللغوي- من تحرير الزمن في خطابه الروائي، وتمكينه من التشكّل كموقف فنّي، وهذا حتّى لا يكون نصّه مجرّد ظل لما جرى في الحكاية. وقد تمّ له ذلك عن طريق تطعيم الألفاظ والتراكيب بدلالات جديدة، مكّنت النص من أن يثغثغ، ليفرز تداعيات جديدة للمعنى، أكسبته حصانة أكثر؛ فماضي الحكاية أصبح يمثّل بعدا من أبعاد العجز والضياع الفلسطيني والعربي على السواء، أمّا الحاضر فهو شكل من أشكال هذا التراصف الزمني، والمستقبل هو أيضا حتميّة من حتميات هذا الزمن المشبّع بالإحباط والهروب والانسحاب بدل التحدّي والمواجهة.

:الإحالات:

1- معن زيادة وآخرون: الموسوعة الفلسفية(م1)، معهد الإنماء العربي- بيروت- لبنان، ط1(1986)، ص467.
2- للإطلاع أكثر على النواحي اللغوية للفظ الزمان، وعلاقته بالألفاظ الأخرى المشابهة، ينظر كتاب محمد الجابري: بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت - لبنان، ط2(1987)، ص177 وما بعدها.
3- ماهر عبد القادر محمّد علي: نظرية المعرفة العلمية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر- بيروت، سنة(1405هـ-1985م)، ص148.

4- رغم أنّنا ما إنّ نستدعي كلمة الزّمن أو إحدى مترادفاتها حتّى نجد أنفسنا وقد استحضرنا تلقائيا إحدى السّمات المرتبطة بها، وهي الطابع الحركي الّذي يميّزها. غير أنّ هناك من رفض هذه الفكرة، فهذا (بارو) يقول في إحدى نصوصه: "ولكن هل الزمن يتضمّن الحركة، ليس على الإطلاق بل إنّه مطلق... إنّ كمية الزمن لا تعتمد على أي جوهرية، سواء أكانت الأشياء تسير أم تقف، سواء أكانت في النوم في اليقظة"- ينظر: ماهر عبد القادر محمّد غلي: نظرية المعرفة العلمية، ص148.
5- لطفي العربي: مدخل إلى الابستيمولوجيا، الدار العربية للكتاب- ليبيا/ تونس، سنة1984، ص.82
6- عبد العزيز نجم: خصوصية الزمن في التجربة الإبداعية، مجلة الثقافة العربية، الإدارة العامة – ليبيا، عدد12، سنة1995، ص51.
7- لطفي العربي: مدخل إلى الابستيمولوجيا، ص82.
8- عبد الصمد زايد: مفهوم الزمن ودلالته، الدار العربية للكتاب – ليبيا، سنة1988، ص22.
9- المرجع نفسه، ص43.
10- المرجع نفسه، ص15.
11- محمد عابد الجابري: بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت- لبنان، ط2(1987)، ص179.
12- فؤاد زكريا: آفاق فلسفية، دار التنوير-بيروت، ط1(1988)، ص.255
13- عبد الصمد زايد: مفهوم الزمن ودلالته، الدار العربية للكتاب – ليبيا، سنة1988، ص22.
14- المرجع نفسه، ص550.
15- ماهر عبد القادر محمّد غلي: نظرية المعرفة العلمية، ص.147
16- محمد طول: البنية السردية في القصص القرآني، ديوان المطبوعات الجامعية-الجزائر، سنة1991، ص34.
17- عبد الصمد زايد: مفهوم الزمن ودلالته، الدار العربية للكتاب – ليبيا، سنة1988، ص22.
18- المرجع السابق، الصفحة نفسها.
19- الطاهر الروائية: الفضاء الروائي في الجازية والدراويش لعبد الحميد بن هدوقة، مجلة المساءلة، عدد01، ربيع1991، الجزائر، ص27.
20- عبد العزيز نجم: خصوصية الزّمن في التجربة الإبداعية، مجلة الحياة الثقافية، الإدارة العامة للثقافة الجماهيرية – ليبيا، ع12، السنة 23، ديسمبر1995، ص51.
21- عبد المالك المرتاض: النصّ الأدبي من أين؟ وإلى أين؟، ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر، سنة1983، ص83.
22- رجال في الشّمس، ص19/18.
23- عبد الصمد زايد: مفهوم الزمن ودلالته، الدار العربية للكتاب – ليبيا، سنة1988، ص22.
24- رجال في الشّمس، ص13/12..-2-
25- رولان بارت: لذّة النصّ، ص.59
26- عبد الجبّار توامة: زمن الفعل في اللّغة العربية-قرائنه وجهاته، ديوان المطبوعات الجامعية -الجزائر، سنة1994، ص03.
27- عبد الصمد زايد: مفهوم الزمن ودلالته، الدار العربية للكتاب – ليبيا، سنة1988، ص22.
28- المرجع نفسه، ص.398
29 رجال في الشّمس، ص48/.49
30- سيزا قاسم: بناء الرواية، ص28
31- رجال في الشّمس، ص.90
32- المصدر السابق، ص21/20..
33- عبد الصّمد زايد: مفهوم الزمن ودلالته، ص125.